٤ ـ أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

لم نستطع أن نهتدي إلى شيء في قصة حب رامي ، هذا الحب الذي لمسنا أثره في الكلمة السابقة ، والذي تفجر بعد ذلك ألحاناً صافية ، فيها كثير من الدموع ، وفيها كثير من الألم ، وذلك حينما دخلت في حياة الشاعر مطربة الخلود الآنسة أم كلثوم ، فوجدتها حياة تضطرب بتلك الآلام التي تختلط فيها ذكريات اليتم والحب . . . اليتم العابس المتجهم ذي المسئوليات ، والحبّ الخائب المنكوب ذي الصبوات ، وجدته يقول :

هل زال من دنياي حسن هزني ؟ أم قر في قلبي لهيب النار ؟
حب تضرّم في حنايا أضلعي فأصابه يأس بطول قرار
وبكيته حتى مللت بكاءه فسكت منطوياً وحزني وار

وهذا كلام سهل لين ، لكنه مؤثر ، بل مُبكٍ ... وأي قلب ... لا يتأثر حينما يسمع رامي في رقته وسمو عاطفته ، يهتف بهذا الشعر الجميل السهل اللين ، شاكياً باكياً ، ذارفاً دموع قلبه ، مصعّداً أنات روحه ، واقفاً عند الشطر الأخير :

فسكت منطوياً وحزني وار !

وقفة العاشق المكروب أمام هذا الحطام المقدس من بقايا حبه !

لقد أرهفت أم كلثوم سمعها حينما سمعت رامياً يئن ذلك الأنين الموجع وسط جنته الذاوية الذابلة ، فوجدته يسائل الأطياف التي تهمهم من حوله :

لمن الغناء أقوله فأصوغه من أدمعي ودمي ، وطيب سراري
ومن الذي يوحي إليّ من الهوى قبس الخيال وصدحة الأوتار
ما أطلق الطير الصدوح بشدوه مثل ابتسام الزهر والنوار
أو نضر الزرع البهيج زهوره كالشمس والماء النمير الجاري
أو أرقص البحر الخضم عبابه كالبدر يشرق باهر الأنوار

وتلفت رامي فجأة على صوت رخيم رضيّ ندي يقول له :

« أيها الطائر المتفرد المعذب المهيض الجناح ، صُغ غناءك لي أملأ به الكون ، وأجعل لك به دَماً جديداً وحياة جديدة ... صُغه لي أوح إليك من أغاني الهوى ألوانها الزاهرة الباهرة ، وأنفض الرماد عن قبس خيالك ، والصدأ عن صدحة أوتارك ، وأبتسم لك ابتسام الزهر والنوار ، وأشرق على عباب بحرك الخضم إشراق البدر باهر الأنوار ، وأدفئ جنتك بمثل الشمس التي جرت في فلكك الدوّار ، وأروِها بمائي النمير الجار ، وأتردد في أنفاسك عطراً ، وأتبلج في ظلام يأسك فجراً ، وأرد عليك شيطانك النافر ، وأذود عنك وسواسك الساهر ، وأسحر لك بنات غابك ، وعرائس عُبابك ، فتفرش لك طرقات جنتك بأفواف الزهر ، ولآلئ البحر ، وتعدك بروائع الفكر ، ونفثات السحر ... و ... و ... » . وما إلى ذلك مما يغازل الأقلام من الشعر ، وهي تكتب عن رامي وأم كلثوم

وانتفض فؤاد رامي لذلك الصوت الرؤوف الرخيم انتفاضة هائلة لم تزل تتردد ملء أضالعه عشرين عاماً ، وأحسبها سوف تتردد فيه حتى يشيخ رامي ، وحتى يهرم معه أناس آخرون

لقد رأينا كيف عز على رامي أن يصمت هذا الصمت الذي أفزعه وشغل باله ، وهو شاعر الإنسانية الحزين الذي يقول :

الحزن أدّبني ، وهذب خاطري وأنالني عُلو الخيال السامي
وأسال أسراب الدموع فصغتها صوغ المعاني في شجيّ نظامي
وأرق إحساسي ومدّ مشاعري فوصلت كل الناس في أرحامي
قاسمتهم أحزانهم وحملت من أعبائهم شطراً من الآلام

فلما سمع من أم كلثوم هذا النداء الرخيم الندي الرضيّ ، خفق قلبه ، واستجاب له ، وحلت مطربة الخلود عقدة السحر عن لسانه ، فانطلق يصوغ لها أغانيه الخالدة (من أدمعه ودمه وطيب سرازه) ، وانطلقت هي (توحي إليه من الهوى ، قبس الخيال وصدحة الأوتار)

ولقد كان دخول أم كلثوم في حياة رامي ثورة كاملة في تلك الحياة اليتيمة الحزينة الباكية ، ولقد استطاعت أم كلثوم أن تلهم رامياً كل هذه الثروة الطائلة من المعاني (البكر !) التي لم يسبقه إليها أحد من الشعراء (فيما نعلم) والتي سجلها في (شعره الجديد) وأغانيه المصرية العذبة التي أنقذت الغناء المصري من الأسفاف الذي تردّى فيه زماناً طويلاً قبل أن يهيئ له الله رامياً ، ليجدده ، وليهذبه ، ولينفي عنه ما كان يشوبه من خيال غث ، وتعبيرات رخيصة ، وغزل بارد مكشوف ؛ مما سنخصص له كلمة مستقلة إن شاء الله

واستطاعت أم كلثوم كذلك أن تخفف من برحاء الحزن

فى نفس رامى ، وأن تلطف من لَذْع الحرَق التى كان ينطوى عليها من جراء نكبته فى حبه ، وقد اعترف هو بذلك فى كثير من شعره الذى أخذ يرق ويصفو لدخول أم كلثوم فيه :

صوتك هاج الشجو فى مسمعى ... وأرسل المكنون من أدمعى
سمعته فانساب فى خاطرى ... للشعر عين ثرّةُ المنبع
ودبّ فى نفسى دبيب المنى ... والبرء فى نضو الجوى الموجع
سلوى من الدنيا تسلى بها ... قلب شديد الخفق فى أضلعى
طال به السهد كأن الدجى ... ضل به الفجر فلم يطلع
حتى إذا غنيتِ ذاق الكرى ... ونام نوم الطفل فى المضجع
كأنما لفظك فى شدوه ... منحدر من دمعى الطيّع
فيه صباباتى وفيه الضنى ... يشكو تباريح فؤادى معي
نظمت أشعارى وغنيتها ... منظومة الحبات من مدمعى
أودعتها الشكوى فمارق لى ... من راح بالقلب ولم يرجع
ولو تغنّيتِ بها عنده ... عاد إلى الود ولم يقطع

أما حديث هذا (الذى راح بالقلب ولم يرجع) فعلمه عند رامى الذى يقول بعد هذا :

يامن شدَت بنسيبه ... ناجيت فيه حبيبى
وردّدت من شكاتى ... ورجّعت من نحيبي
وأودَعَت فى الأغانى ... تباوحى ووجيبى
فجرتِ نبعَ خيالى ... من بعد طول النضوب
أنمت حزن فؤادى ... بصوتك المحبوب
وكنتِ مألف حسى ... وظل روحى الغريب
وآنس اليوم قلبى ... نجيّه فى القلوب
حتى غنيت بنجوا ... ك عن هوى وحبيب[1]

فنحن إلى الآن تلقاء حالات ثلاث من أحوال رامى ... أولاها رامى المحب المحزون ، وثانيتها رامى الذى يشكر القدر على هذا الصوت الذى أخذ (يدب فى نفسه دبيب المنى ، والبرء فى نضو الجوى الموجع) ، رامى الذى لا يزال يحن إلى إلفه القديم فيقول :

أودعتها الشكوى فما رق لى ... من راح بالقلب ولم يرجع
ولو تغنّيتِ بها عنده ... عاد إلى الود ولم يقطع

أما الحالة الثالثة ، فرامى الذى أخذ يتسلى عن هواه القديم ، حيث يقول :

أنمتِ حزن فؤادى ... بصوتك المحبوب
وكنتِ مألف حسى ... وظل روحى الغريب
وآنس اليوم قلبى ... نجيّه فى القلوب
حتى غنيت بنجوا ... ك عن هوى وحبيب

وذلك اعتراف صريح من رامى بأن قلبه قد آنس اليوم نجيّه فى القلوب ، حتى غنيتِ بنجواه عن كل هوى وكل حبيب

أما تاريخ قلب رامى بعد هذه الأطوار الثلاثة من أطوار حبه فليس من شأننا ، ونستطيع أن نقول إنه أصبح قلباً شديد الصلة بأذنيه ... أى من هذه القلوب التى تعشق بالأذن قبل أن تعشق بالعين أحياناً وإن تلك عين رامى من أعشق عيون الشعراء الذين عرفناهم أجمعين . ونستطيع أيضاً أن نلفت النظر إلى حب جديد شب فى قلب رامى فجأة ، وجعله لأول مرة فى حياته يذكر الشك ويردده كثيراً فى أشعاره الجديدة وفى أغانيه المصرية البارعة الرائعة :

تقول أسأت الظن بى فكأنما ... تخال محباً لا تسوء ظنونه
وهل قر قلب فى هواه ولوغدا ... يساجله فرط الحنان خدينه
إذا لم يكن فى الحب شك وحيرة ... فمن أين يحلو للمحب يقينهُ ؟

ومن قصيدته (بين الشك واليقين) :

قد أحاطت بك العيون فما أستطيع ألقى مكان عينى منك
وجرت حولك الأحاديث حتى ... كدت أنسى الذى أحدّث عنك
وأطافت بك القلوب وقلبى ... ضاع فى غمرها ولما يُضمك
خبرينى أى القلوب تناجيـ ... ـن فقد همت فى غيابة شك

ومن قصيدته (كذب الظنون) التى مطلعها :

أخاف عليك من نجوى العيون ... وأخشى أنّة القلب الحزين
وأعلم ميل نفسك أن تكونى ... هوى الدنيا ومُنْيَةَ الحنين
فأخشى قولة العُذّال مالت ... لغيرك ، وانمحى كذب الظنون
وقفت على هواك مطار فكرى ... ومسرى خاطرى وهوى فنونى
ووحّدت المعانى فيك حتى ... رأيت الكون خلواً من شجونى
فهل يرضيك ما ألقى فأرضى ... نصيبى فيك من ذل وهون
أم الظن المريب أضل رشدى ... وأرسل ليله يغشى يقينى
وأنت كما عهدتك فى غرامى ... نجيبة قلبى الراعى الأمين

ومن قصيدته (ظن المحبين) :

ساورتنى الظنون فيها ولكنـ ... ـنى غالبت سوء ظنى حينا

(١) نعتذر عن حذف بعض الأبيات لسياق الحديث